كنت محاصرًا بوجه المتنبي

شوقي بزيع

ينبغي الاشارة، بادىء ذي بدء، الى أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة قد تحتاج الى بحث مطول أو كتاب كامل نظراً لخطورتها وتشعبها. وأن أي محاولة للإجابة السريعة ستكون دون شك خالية من الدقة وبالتالي لن تعطي ثمارها المرجوة. غير أن ذلك لا يمنعنا من وضع إشارات عامة يمكن الإستدلال بها أثناء التعرض لقضايا الثقافة العربية ومشكلاتها الصعبة.

ان الهزيمة التي نتحدث عنها ليست هزيمة عارضة أو طارئة على هذه الأمة، بل نحن نتحرك منذ عشرين عاماً وأكثر في أفق مهزوم. هذا الأفق لم يقتصر على السطح السياسي والسلطات الحاكمة لكنه بدأ يطال مختلف البنى الاجتماعية وطرائق العيش. حتى أن نظرتنا الى الهزيمة هي نظرة مهزومة بحدّ ذاتها لأنها تقتصر على ردود الفعل العابرة التي تتبع الحدث السياسي او العسكري مباشرة ثم ما تلبث أن تتلاشى في زحمة الأحداث المتتالية. ألم نطرح على أنفسنا الأسئلة ذاتها بعد حزيران ٦٧ ثم أخذنا نكررها في الأعوام التالية كلما أجهضت حركة تحرر وطني في عالمنا العربي؟ لماذا تبدو محاولاتنا إذن وكأنها تذهب سدى؟ هل التخلف هو المشكلة؟

قد يكون التخلف أحد أسباب هزيمتنا، لكنه ليس كافياً للتسبّب بكل الكوارث التي تصيبنا. ثم إن هناك شعوباً ليست أكثر تحضراً منا استطاعت أن تهزم كل تقنية الغرب ووحشيته «المتحضرة».

إن ما اعطى تلك الشعوب قوتها الأساسية هو شعورها بالانتماء. ذلك الشعور الذي يحيل الرجل والمرأة الى شجرة او حجر أو نهر ويجعل المسافة بين الموت والحياة أقل بكثيرمما هي عليه بين الهامشية والانتماء الى وطن نستحقه. هذا الشعور ينقص الكثيرين منا. كأن البداوة هي قدرنا المستمر والشعور بالمكان هو عدونا الألد. لو عزفت النشيد الوطني أمام رجل يأكل لما تحرك له جفن. لأن من لا يقدس الوطن كوجود مادي لن يقدسه في حالاته الرمزية. هذا السؤال اذا كان مطروحاً بقوة على المجتمع العربي بكافة فئاته فهو مطروح بقوة اكبر على المثقفين. ان معظم القصائد والكتابات تتبع النمط الجاهز ولا تتبع الروح المختلجة في عمق الأشياء وخصوصيتها. والنمط يتبع العرض والطلب السياسيين بالمعنى السطحي للسياسة. فالأدب هو فعل سياسي بالضرورة. لكن له قوله الخاص وأدواته الخاصة لكي يكون أدباً. أما عندنا فالقول السياسي قادم من الخارج. من نص غير مكتوب تقرره السلطة أو الحزب أو القبيلة أو ظل هؤلاء جميعاً في نفس الكاتب وأعماقه.

لذلك حكمت الثقافة على نفسها بالهزيمة التي أصابت السياسة. كيف لا يحصل ذلك وهي

تابعتها وصداها؟ في حين أن الأديب الحقيقي يكسر دائماً بنية السياسة وينفذ منها الى الجوهري والخلاّق. فالموقف السياسي مهما بدا متماسكاً لن يصمد طويلا أمام متغيرات الواقع، كما انه عرضة للتبديل والتغيير وفقاً لمنطق التكتيك والستراتيجية الذي يحكمه. هذا يعني أن على المثقف المنتج في حال تبعيته للموقف السياسي أن يغير نصه عشرات المرات او ان ينتج أدباً استهلاكياً لا نصيب له من الديمومة.

في أميركا اللاتينية مثلا استطاعت الثقافة أن تكسر الطوق لأنها لم تكن تابعة، بل على العكس، فهي تبدو اليوم وكأنها تقود معركة التحرر من الأنظمة العسكرية الفاشية التي تحكم معظم دول القارة، مع أن ما يعانيه المثقفون هناك من قمع وارهاب لايقل عما نعانيه نحن إن لم يفقه بأصناف، الشيء الأهم هناك هو قرار المواجهة بكافة أشكالها من الأظافر حتى الشعر والرواية. كما أن الثقافة واجهت غرائبية القمع بغرائبية النص لا بخطابيته وادعائه. ولم يقبل المثقف أن يكون ملحقاً بالغرب على المستوى الايديولوجي والابداعي في الوقت الذي يقدم له هذا الغرب ابشع انواع الفاشيات الحديثة. لقد خلق ماركيز وأمادو وأستورياس نماذج روائية تختلف عن كل ما قدمه الروائيون الغربيون، وكذلك فعل الشعراء وسائر المبدعين. لذلك رأينا الكثير من هؤلاء يحوزون على جوائز نوبل بينما لم نجد اسماً عربياً واحداً على لوائح هذه الجائزة، مع أن القيّمين عليها ليسوا أكثر عداء للكتّاب العرب منهم لكتّاب تلك المنطقة من العالم. بينما يساهم العديد من مثقفينا في عملية التغريب والالحاق الثقافي عبر نصوص لا صلة لها من قريب أو بعيد بما يجري على أرض الواقع العربي. كم هو عدد القصائد التي تفوح منها روائح الأرض والأشياء والبشر المحليين؟ أعتقد أنه قليل جداً. كم قصيدة تحيلنا الى مكان وزمان وإلى لون وجوه وأتربة! كم بدر شاكر السياب لدينا، وكم قرية كجيكور ونهراً كبويب؟.

بالإضافة الى كل ذلك تعاني ثقافتنا من أمراض التفتت والتجزئة. لقد ابتعدت ثقافة المركز التي سادت لفترات طويلة من تاريخنا وحلت محلها ثقافة الاقليم والحي والعشيرة. صارت الثقافة انعكاساً للتجزئة السياسية وتكريساً لها بدلا من أن توحد وتصهر مجتمعاتنا المتباعدة عند ذلك القاسم المشترك الذي يجمعنا كأمة. لهذا لم تعد الاسماء المبدعة ترن في طول الوطن العربي وعرضه بل اصبحت محصورة في اجزاء وأقاليم. حتى لنرى اسماء لها شهرة واسعة في بلدها بينما تكاد تكون مجهولة في بلد عربي آخر. هذا مع اعترافنا بأن أنظمة الرقابة العربية تسهم في اقامة الحواجز والسدود ومنع ما هو تقدمي وفاعل، لكن المبدع الحقيقي يستطيع تحطيم هذه الحواجز ولدينا العديد من الاسماء التي برهنت على صحة ما أقول.

أما الجانب الأهم من القضية فهو ذلك البون الشاسع بين حياة الكاتب والأديب العربي وبين ما يكتبه. اننا نفتقر الى الصدق كما نفتقر الى الجرأة. ان الواقع الذي نعيشه لا يناسبه ما هو أقل من الانتحار لشدة ما هو مأساوي ومخيف. وقوة أي مثقف تكمن في المشروع الحياتي الذي رسمه لنفسه سواء في علاقته بعالم الداخل أو بعوالم الخارج. ينبغي أن نملك الرؤيا النافذة والتبصر في النظر الى الوقائع وإلا فقدت مواقفنا جداوها وفعاليتها. وفي دفاعنا عن قيمنا الحياتية يجب أن نضع الموت في الحسبان. وليس معنى ذلك انني اطلب من المثقفين ان يضعوا الحبال في اعناقهم ويشنقوا انفسهم في احدى الساحات العامة او ان يختاروا حمل السلاح كحلّ وحيد فعال مع عدم نفي هذا الحلّ أيضاً، بل أن يكونوا الى جانب امتهم

في مواجهة تحدياتها المصيرية لا ان يتراجعوا الى مكان آمن ويكتفوا برثائها من بعيد. ان الهموم الشخصية تكاد تطغى على حياة المثقف العربي بشكل يثير الدهشة، كما ان الكثيرين يتراجعون عن مواقفهم حين يتعرضون لاغراء المال أو لتهديد القمع. قليلون هم المبدئيون، والمصالح الآنية تشوه الصورة وتغيّب ذكريات ما زالت طازجة عن المثقف الإنتحاري.

إن بيروت هي آخر النماذج التي تشهد على صحة ما أقول. كانت بيروت محكاً حقيقياً لمصداقية المثقفين الذين طالما كالوا لها التهم ورموها بالعجز والعهر وفقدان الهوية. حتى اذا ما خلعت المدينة عن نفسها الاقنعة الكاذبة بحثاً عن وجهها الأصيل انفضّوا عنها وتركوها وحيدة مع حفنة من المقاتلين والناس الشرفاء.

ولا أبالغ إذا قلت انني خلال أشهر الحصار كلها كنت محاصراً بوجه المتنبي الطالع من عمق تاريخنا الحي وهو يرفض الهرب طلباً للنجاة، لأنه اراد ان يتوحد الإنسان والشاعر في داخله لأن موت أحدهما يعني موت الآخر بالضرورة. لا أقدم المتنبي كنموذج وحيد فليس من مبدع كبير الا وكان ابداعه تفجيراً صادقاً لمعتقداته ومكنونات نفسه. لنفعل أي شيء لكن لنكن صادقين. والأهم أن نكون دائماً في صف الأنسان لأن الانسان هو الأصل.

دار الآداب تقدم

رضوى عاشور